

البنى الأسلوبية في شعر الثورة الجزائرية " مدونة من الإلياذة الجزائرية " لمفدي زكرياء " أنموذجا.

الطالبة الباحثة: تاحي بختة
جامعة الشلف / الجزائر

اللغة العربية لغة موسيقية ، يتوافق وينسجم جرس حروفها في اللفظة الواحدة والكلمة إلى الكلمة جملة ، والجملة نغمة لها الوقع الطيب على السمع مما يجعل للمعنى تأثيرا. فلقد هبت على حقول فن التعبير منذ القرن الثامن عشر ميلادي رياح مختلفة ، ارتبطت بتغير فلسفات العلم ومفاهيم الشعوب لكثير من أمور الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والعقائدية ، وتغيرت فلسفة التعبير وأسلوبه تبعاً لذلك وقد نشأ عن ذلك كله أن البلاغة القديمة تحورت في شكل " الأسلوب " الوسيط ثم " الأسلوبية " المعاصرة وخطت الدراسات الأوروبية في هذا السبيل خطوات واسعة بدت باهرة لأبصار الكثيرين منا ممن أتيح لهم الاطلاع عليها أو على ما ترجم أو نقل منها ، إذا ما المقصود بالأسلوب والبنى الأسلوبية ؟ وكيف كانت تجلياتها في شعر الثورة الجزائرية ؟.

من المعلوم أن كلمة "أسلوب" قديمة في اللغة العربية فقد وردت في كلام العرب وجاءت في مصنفاتها اللغوية والمعجمية¹ ، قال صاحب اللسان : { يقال للسطر من النخيل أسلوب ، وكل طريق ممتد أسلوب ، قال : والأسلوب : الطريق والوجه ، والمذهب ، يقال : أنتم في أسلوب سوء ، ويجمع أساليب ، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه ، والأسلوب بالضم ، الفن ، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي : أفانين منه ، وإن أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبر.....}2.

والأسلوب في الواقع هو النظم الذي نظر له " عبد القاهر الجرجاني " (471هـ) ومن ثم فإنه يحتاج إلى الثقافة والحدق لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان.³

فبالأسلوب نظام تؤدي اللغة فيه وظائف مخصوصة ، ولامتحان التماسك الداخلي لهذا التعريف ، يمكن البحث عن الصحة فيه من خلال ملاحظات تتعلق بالخصائص الأسلوبية نفسها ، وهذا التعريف يقوم على تعاكس المفاهيم ، فالمعروف هو أن اللغة نظام وأن الأسلوب يؤدي بها إلى وظائف مخصوصة

وإذا كان هذا هو النظام ، فإنه ينطبق على الأسلوبية أيضا ، ذلك أن الأسلوبية علم يدرس تناسق العناصر المؤلفة للكلام وتداخلها ، ويبحث العلاقات القائمة بين هذه العناصر لحديد وظائفها ، وبهذا فالأسلوب ليس فوضى تنظمه اللغة⁴ . ولكنه كلام به تنتظم اللغة .

والتعرض لقضية الأسلوب بوصفه مشكلة ، ضرورية لا بد منها لما له من حضور جلي في معظم العلوم الفنية والعلمية والعامة.

وهو كذلك الموازنة بين الظواهر العلمية هي السبيل الأمثل لتحديدها وتعريفها ، والوقوف على خصائصها ، واللغوي الفرنسي " بوفون " هو أول من عرّف الأسلوب تعريفا نال قسطا كبيرا من الشهرة والانتشار وحظا أكبر من الفهم الذي تباين حيناً وتطابق حيناً آخر حيث قال : { الأسلوب هو الشخص نفسه le style est l'homme même .

فانطلق في هذا الموقف من إيمانه بأن الأعمال المتقنة كتابيا هي وحدها التي تخلد وليس الخبرات والاكتشافات ، لأن الأخيرة لا تقع في دائرة سلطة الانسان ، والأسلوب هو الانسان نفسه لا يمكن أن يسرق أو ينقل أو يغير ، وسوف يظل كاتبه مستحسنا ومقبولا في الأزمنة كلها⁵ ، إذا كان أسلوبه رفيعا وجميلا وعاليا.

بحيث يحوي تاريخ الأسلوبية كثيرا من العناصر والموروثات المرتبطة بالأسلوب عرفها العرب بصورة غير مقننة ، واتخذت أشكالا وصورا محدودة ولكنها لم تكن قائمة على أساس علمي ، كان العرب ذوي حس نقدي ، وكانت لهم جهود في مجال النقد ، إلا أنها كانت أقرب إلى الانطباعات والملاحظات السريعة القائمة على الذوق والإحساس بقيمة الكلمة وموضعها في السياق ولذلك لم تكن هذه الملاحظات تستند إلى نظريات وقوانين وكان اليونان أسبق من العرب في هذا الميدان ، فهم السابقون إلى معرفة كثير من قضايا النقد وارساء قواعده .

وإذا فحص الباحث ما تراكم من تراث التفكير الأسلوبي وشقه بمقطع عمودي يخرق طبقاته الزمنية اكتشف أنه يقوم على ركح ثلاثي دعائمه هي⁶: المخاطب والمخاطب والخطاب.

*الأسلوبية البنيوية :

ظهرت الأسلوبية البنيوية في سنوات الستين من القرن العشرين ، مع أعمال كل من "رومان جاكسون" و"تودروف" و"كلود بريمون" و"رولان بارت" و"جيرار جنيت" وجماعة مو ، و"جون كوهن" و"جوليا كريستيفا" و"كريماس" و"جوزيف كورتيس" و"ميشال ريفاتير" (M. rifaterre) الذي كتب مجموعة من المقالات النقدية والأدبية ، وقد توجت هذه الأبحاث كلها بكتاب في السبعينات من القرن نفسه تحت عنوان : "أبحاث حول الأسلوبية البنيوية" ومن ثم فقد اهتم "ريفاتير" بلسانية الأسلوب ، وتفكيك الشفرة التواصلية في اطار علاقة المرسل بالمرسل إليه.

فقد ركز على آثار الأسلوب في علاقتها بالمتلقي ذهنيا ووجدانيا ، كما ربط الأسلوبية باستكشاف التعارضات الضدية ، وتبيان الاختلافات البنيوية التي يتكئ عليها أسلوب النص⁷.

*دراسة في تطور البحث الأسلوبي عند العرب :

كانت فكرة الطموح إلى مغالبة "الفناء" العاجل أو الأجل ، فكرة مهيمنة على مجمل الحضارات القديمة ، وقد دفعتها ، إلى أن تتلمس طرائق يمتد من خلالها الصوت البشري الواهي فيكسر حدود المكان عرضا ، وحدود الزمان طولا ، محاولا أن يسترق السمع للغة الكون حوله ويقنطع جوانب من الصمت والضجيج كليهما فينسج منها شهرة يرضاها ، ويقيم من خلالها حوارا ويطرح تساؤلات ويحاول البحث عن تفسيرات ، وهو يحاول كذلك أن يستشرق أفاق المجهول في نقطتيه المتقابلتين في الماضي عمقا ، وفي الآتي مصيرا ، ويرى نفسه محاصرا بين حدود ضيقة للنقطتين

-حصاره بين طرفي قبة السماء الزرقاء ، عندما تلامسان على مشارف الأفق القريب ما يظن أنه الأرض أو البحر ، فتغلغان في لحظة التماس والتعاطف هذه ، أفاق الرؤية وطموحات المعرفة⁸ ، أو ينفث من خلال ذلك أفاق الحلم الأ محدود في مقابل الإدراك المحاصر الذي يهدده الفناء.

فبالأسلوبية البنيوية : تعلمنا أن :

✓ اللغة بنية ، وأنه ضمن نسق العلاقات بين الإشارات يجب أن يكون البحث عن مصدر القيم الأسلوبية ذلك لأنها ليست خواص للإشارة ولكن للنسق.

✓ أن هذه البنى تستجيب لوظائف تحددها طبيعة الإيصال والمتغيرات مثل : المرسل ، والناقل والمستقبل ، والرمز ، والمرجع ، وإن طبيعة كل واحد في علاقاته مع الآخرين ، تفرض استخدامات معينة في كل حالة خاصة حيث الخصوصية تولد أثر الأسلوب.

✓ تعلمنا أيضا أن آثار الأسلوب مصدرا مزدوجا ، بنية النسق الاستبدالي حيث تأخذ الآثار قيمها الممكنة ، وبنية النص (التركيب) التي تجعل هذه القيمة أو تلك آنية.

هكذا حين نعارض بين اللغة والخطاب نميز نوعا من الأسلوبية في اللغة حسب " بالي " ونقدا للأسلوب في النص (حسب البنيوية) وثمة في كل حالة⁹ : أسلوبية بنيوية أو وصفية تصف البنية الاستبدالية للنسق ، أو البنية التركيبية للنص الذي ولده هذا النسق ، وهناك أسلوبية تكوينية تحدد أصل ازدواجية البنية وخاصة أصل القانون ، وأخيرا ، الأسلوبية الوظيفية ، وهي تحدد مصيرها ومصير الرسالة.

وسنجد هذه البنى الأسلوبية في شعر الثورة من خلال تحليل مدونة من إلياذة الجزائر لـ : " مفدي زكرياء " ، فإلياذة مفدي زكرياء هي محاولة لإعادة كتابة تاريخ الجزائر ، والتركيز على أهم المحطات التاريخية قصد إجلال أهم دلالاتها ومن هنا فإن أهم بطل فيها ليس إلها وثنيا أو بطلا خرافيا أو أسطوريا جاء ليلخصها من كل محنة وجدت فيها ولكنها عبقرية الشعب الجزائري ودأبه على وضع تاريخه بنفسه.

أما زمن إلياذة الجزائر فإنه يمتد من فجر التاريخ البشري إلى نهاية سبعينات هذا القرن وفضائها أيضا الرقعة الجغرافية (الجزائر التي شهدت هذه الأحداث).

ولقد قيل الكثير حول الإلياذة واتفق الجميع حول كونها ملحمة شعرية تروي مآثر الجزائر وتاريخها النضالي والبطولي وتسجل أمجادها وتصف طبيعتها وأروع ثيابها بأسلوب يتميز بالخيال الواسع والموسيقى التعبيرية العذبة المشحونة بشعائل نورانية وبالفعل فالإلياذة سجل لتلك المقاومات التي عشناها وسجل لحاضرنا ومستقبلنا في مساعينا لاستعادة شخصيتنا وحصانيتها لبناء مجد جديد وسجل للتغني بجمال الطبيعة، بجمال الجزائر.

تحليل مقطع من الإلياذة:

* جَزَائِرُ يَامَطْرُ لَعِ الْمُعْجِرَاتِ *
 * جَزَائِرُ يَامَطْرُ لَعِ الْمُعْجِرَاتِ وَيَا حُجَّةَ اللَّهِ فِي
 الكَائِنَاتِ *
 * وَيَا بَسْمَةَ الرَّبِّ فِي أَرْضِهِ وَيَا وَجْهَهُ الضَّاحِكِ
 القَسَمَاتِ *
 * وَيَا لَوْحَةً فِي سِجِّ الخُلُودِ تَمْوُجُ بِهِ
 الصُّوَرُ الخَالِمَاتِ *
 * وَيَا قِصَّةً بَاتَتْ فِيهَا الوُجُودُ مَعَانِي السُّمُورِ بِرُوعِ
 الحَيَاةِ *
 * وَيَا صَفْحَةً خَطَّ فِيهَا البَقَا بِنَارِ
 وَنُورِ جَهَنَّمَ الأَبَاةِ *
 * وَيَا لِلْبُطُولَاتِ تَغْرُو الدُّنَا وَتَأْتِي هَمُّهَا القَبِيحِ
 الخَالِدَاتِ *
 * وَأَسْطُورَةَ رَدَدَتْهَا القُورُ فَهَاجَتْ
 بِأَعْمَاقِهَا الدِّكْرِيَّاتِ *

*وَيَا ثُرْبَةَ تَاهَ فِيهِمَا الْجَاءُ لَأَلْ فَتَاهَتْ بِهَا الْقِمَمُ
الشَّامِخَاتُ*
*وَأَلْفَى النَّهْ فِيهَا الْجَمَّ لَأَلْ فَهَمَّ
بِأَسْرَارِهَا الْفَاتِنَاتُ*
*وَأَهْمَى عَلَى قَدَمَيْهَا الزَّمَ أَنْ فَأَهْوَى عَلَى قَدَمَيْهَا
الطَّفَاةُ*

يمكن في هذه القصيدة التمثيل لتراكم معنى البطولة بمجموعة من الدوال المتجاوزة في أصواتها المترادفة في مدلولاتها .
في مقولة السمو والرفعة :

تاه فيها الجلال- يجل- عرش الجلال- تقدر- واديك – تحفظ ميزاب- لوح الجلال- سمو المعاني-
بروع الحياة- الصفاء- السلام- السماح – الطماح- الهنا – السمو رمز لاجلالنا.
في مقولة الاعزاز والافتخار:

فخر الجزائر- شرفني باسم الجزائر – جنسيتي- كرمت باسم- المفاخر قومي- إلهام حسي- تبارك
شعب- فكننا كراما- وتزخر بالعلم ارجاؤنا.
في مقولة التحدي والمواجهة:

صنعت – عبت – كنا الكواسر- كنا المنايا- نأف أن نهزم- فطوق تاريخنا – فكان الرصاص
القصاص الضميا- وشمير- يرفض – ينفذ- فأقسم- وأعلن- وفجر- قمنا – تحدي- ثرنا – نقاوم- وتأبى
– ويأبى.

من خلال هذه المعاني البطولية يتبين أن " مفدي زكرياء" يسخر من العدو رغم قوته المادية البشرية ،
، والإحاطة به مما يتشاكل ذلك دلاليا مع معاني القوة السالفة، أي الحرب النفسية ضد العدو .

حيث كان الاستهلال عاما لكل الجزائر رمز " الوطن" وهو لم يخص منطقة دون غيرها ، بل
تحدث عنها كتلة واحدة تلهب هذا الشوق الجارف لما يربط الإنسان بالأرض ففي الصورة الشعرية
تتجمع عناصر متباعدة في المكان والزمان غاية التباعد ولكن سرعان ما تأتلف في اطار شعوري
واحد.

والتحليل الأسلوبي يكون عبر مستويات (المستوى التركيبي – المستوى الدلالي – المستوى
التصويري- المستوى الإيقاعي).

1-المستوى الدلالي : فالبيت الأول من القصيدة يتحدث عن البطولات وشهامة الشعب الجزائري الذي
حقق المعجزات ، واستشهد الكثير منهم " مليون ونصف المليون شهيد " من أجل الوطن ، وفي الشطر
الثاني من البيت يقول الشاعر مفدي زكرياء : {حجّة الله في الكائنات} بمعنى معجزة الله في خلقه
وعبرة للأمم العربية في أن الجزائر ليست سهلة، وليس سهلا على العدو استعمارها .

والبيت الثاني كناية عن رضى المولى على هذا الشعب الصامد في سبيله وسبيل الدفاع عن الوطن
الاسلامي ، كذلك شبه الجزائر بلوحة دائمة لا تزول ولا تحول فقال : (لوحة الخلود).

البيت الثالث يدلي بأنها حقا قصة ولا كل القصص التي مرت في تاريخ البشر، فيحكي عن بطولات
وأمجاد أجدادنا وآباءنا وأمهاتنا الأحرار الذين رفعن راية الحق والثبات على دين الله دين الاسلام
الحنيف وفي آخر الأبيات يقول الشاعر "مفدي" : { حتى الزمان لم يستطع نكرانها } ولا حتى العدو
استطاع أن يهزمها ، فهو ذلك العدو وانكسر ، وشبه هذ السقوط بالذل أي ركوع العدو على قدميه
للشعب الجزائري مهزوما مذعورا.

- (3) بداش حنيفة : الأسلوبية الوظيفية وموقعها من كتاب البيان في روائع القرآن لتمام حسان، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي ، جامعة منتوري قسنطينة، 2008م.
- (4) فيلي سانديرس: تر : خالد محمود جمعة ، نحو نظرية أسلوبية لسانية ، توزيع دار الفكر بدمشق ، سورية ، ط1 ، 1424هـ/2003م.
- (5) جميل حمداوي: اتجاهات الأسلوبية ، مكتبة المثقف ، ط1 ، 2015م.
- (6) فتح الله أحمد سليمان : الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 1425هـ/2004م.
- (7) أحمد درويش : دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، دت.
- (8) بيير جيرو: تر: منذر عياشي ، الأسلوبية ، دار الحاسوب للطباعة ، حلب ، ط2 ، 1994م.
- (9) ابن منظور : لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 ، دت ، مادة سلب.

1-البكاري اخذاري : قصيدة " قذى بعينيك " للخنساء دراسة أسلوبية ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، جامعة الجزائر 2005م، ص09.

-ابن منظور : لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 ، دت ، مادة سلب ²

³ -جبار اهليل زغير محمد الزيدي المياحي : أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بابل 1432هـ/2011م ، ص10.

⁴ -بداش حنيفة : الأسلوبية الوظيفية وموقعها من كتاب البيان في روائع القرآن لتمام حسان ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي ، جامعة منتوري قسنطينة ، 2008م ، ص32.

⁵ -فيلي سانديرس : تر: خالد محمود جمعة ، نحو نظرية أسلوبية لسانية ، توزيع دار الفكر بدمشق ، سورية ، ط1 ، 1424هـ/2003م ، ص29.

-فتح الله أحمد سليمان : الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 1425هـ/2004م، ص12⁶

-جميل حمداوي : اتجاهات الأسلوبية ، مكتبة المثقف ، ط1 ، 2015م ، ص16⁷.

-احمد درويش : دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، دت، ص56⁸

-بيير جيرو: تر : منذر عياشي ، الأسلوبية ، دار الحاسوب للطباعة ، حلب ، ط2 ، 1994م ، ص149⁹.